

التقية والشيخ الأنصاري

الشيخ عفيف الغابلسي (لبنان)



والصلاة والسلام على البشير النذير وآله الأقربين المعصومين ولعنة الله على ظالمهم ومغتصبى حقهم إلى يوم الدين .

هذا بعض ما تيسر لنا من كتابة حول التقية والشيخ الأنصاري .

١- هل التقية عمل سري مطلق ؟ أو عمل سري مؤقت ؟

٢- هل للتقية مبرر شرعي وعرفي وعقلي ؟ أو أنها ظاهرة يلجأ إليها كل هدام ؟ أو مراوغ أو كذاب يظهر شيئاً ويبطن شيئاً آخر ؟

لقد اعتاد العقلاء وأصحاب الدعوات العامة والأفكار الاستراتيجية التغييرية أن يقدّروا الحالة الثقافية العامة المركوزة في أذهان الشعب، ولا يواجهونها مواجهة دفعية، إذ أنهم لو فعلوا ذلك لابتلوا بمجدار سميك من الرفض لدعوتهم .

أما في أيامنا هذه فيبدأ التحضير لأي فكرة، ثم يوضع لها خطط مرحلية . فالفكرة

تولد سرّاً كما يولد اللقطاء، ثمّ تبذر في المجتمع مع مراعاة كلّ الاحتمالات والظروف والأوضاع العامة من سياسية، واجتماعية، وأمنية وما إلى ذلك.

وإذا كانت الدول العظمى صاحبة النفوذ والتأثير الكبيرين في المجتمع الدولي تتّقي الشعوب، فتلجأ لتمرير مشاريعها بعقد الاتفاقات السريّة، وتسوّف لأيّ مشروع تريد إظهاره بمحملة إعلامية تهديدية كبرى قبل ظهور المشروع بسنوات، فما حال صاحب الفكرة التي لا ناصر لها ولا معين؛ وهي في نفس الوقت مرفوضة سلفاً من المترفين أصحاب الامتيازات الفارقين في النعيم على حساب الشعوب.

إذا فالسرية مطلوبة، حيث لا مجال للعلن سواء كانت الدعوة حقّة أو باطلة. وهذا ما أجمعت الأمم والشعوب، وتعارف على العمل به جميع أرباب الأفكار التغييرية. وهذا ما سنلمحه من خلال هذا البحث.

دعوتان للتغيير، إحداها ظاهرة واضحة انقرضت، والثانية استعملت التقية بقيت، وازدهرت.

الأولى: هي دعوة الخوارج وهم فئة ركبّت هواها وصارحت المجتمع بما تقوم به. وقدّمت من قياديتها عبادةً ملئت جباههم سعفاً كسفف الشيطان. الخوارج أقضوا مضاجع الحكّام الأمويين عبر التاريخ وكانوا يسطرون الملاحم البطولية في الدفاع عن فكرتهم، ويعتبرون أنّ الجنة لهم، ولمن يسير بهديهم. وظلّوا حقبةً من الزمن ليست بالقليلة ثمّ تلاشوا تدريجياً حتى عمدوا بعد ذلك إلى تغيير طريقتهم، وأدائهم السياسي. الدعوة الثانية: هي الدعوة إلى محبة آل البيت عليهم السلام، وهي دعوة عاقلة كان يوجهها الأئمة المعصومون. وكان الغرض من وراء هذه الدعوة إيجاد الأرضية الشعبية المتعاطفة مع آل محمّد، وحشد جماهير الأئمة في ظلّ قيادتهم في وقت كان هوس الحكم وجنون الكرسي قد دخل في كيان الحاكم، بل في كيان عشيرته، ومجتمعه، ومحازبيه.

وكانوا يعلمون أنّ المنافس الخطير على الخلافة والرئاسة هم آل البيت عليهم السلام.

وشيعتهم، وأتّهم وحدهم يستطيعون القيام بعملية تغييرية من الهرم إلى الذيل، ومن القمّة إلى القاعدة.

وإذا كانت الدعوة بهذه المثابة من الوضوح، فهل يسمح الحكم لنفسه، وهل يتنازل المجتمع الحاكم، أو قلّ الفئة المتسلّمة مقاليد الأمور، ثمّ يقدّمون الحكم على طبق من ذهب لهذه الحركة التغييرية الجديدة ؟

والذي عليه الحكم والحكومات سابقاً ولاحقاً أن تلاحق المعارضة فرداً فرداً، فتسفك الدماء وتهدم الدور، وتصادر الأموال وتشرّد العوائل، ويُقضى على الحركة الجديدة وتُضرب بيد من حديد. وهذا ما نقرأه في التاريخ، وهذا ما نشاهده يومياً من خلال ممارسات الدول مع الشعوب والحركات التحريرية في أكثر بلاد العالم ديمقراطية.

التقية ضرورة فطريّة عقلية دينيّة وإصلاحية :

إنّ تشريع التقية هو خير دليل على 'شمولية الإسلام ومرونته واتّساعه لكل الظروف والأحوال. وإلّا فلو كانت الرسالة جافة وقاسية؛ ولا تلاحظ الظروف الطارئة والأحوال العارضة، فإنّها لا بدّ وأن تصطدم مع الواقع، وتنهار أمامه دون أن تتمكّن من تجاوزه. فهو بتشريع التقية إنّما يحافظ على الرسالة من خلال حفاظه على رائدها، وحافظها، وحاملها في ذلك الظرف العصيب. وخير شاهد على ذلك هو تلك الفترة السريّة التي مرّ بها النبي ﷺ والمسلمون في أوّل البعثة. وأنّ المحافظة على حامل الرسالة من خلال مرونة الرسالة تكون ضرورية جدّاً، حينما لا يكون للتضحية به فائدة، ولا عائدة إن لم يكن في ذلك ضرر على الرسالة نفسها، حينما تفقد جندياً أميناً من جنودها ربّما تكون في وقت ما في أمسّ الحاجة إليه.

وهكذا فكثيراً ما يكون الحفاظ على الإسلام من خلال الحفاظ على جنوده الأبرار الأوفياء؛ والذين يكونون دائماً على استعداد للتضحية في سبيله كلّما اقتضى الأمر ذلك.

فالتقية إنما شرعت للحفاظ على هؤلاء. أما الآخرون فإنهم لا يفكرون إلا في أنفسهم، ولا ينفعهم تشريع التقية ولا عدمه.

ومما يدلنا على أن تشريع التقية إنما هو للحفاظ على الرسالة من خلال الحفاظ على جنودها - وليس ذلك نفاقاً ولا انهزاماً، لأن هؤلاء المخلصين الذين يراود الحفاظ عليهم هم على استعداد للبذل والعطاء دائماً.

إن الحسين الساكت في زمن معاوية، هو نفسه الحسين الثائر على يزيد تحت شعار: إن كان دين محمد لم يستقم إلا بقتلي يا سيوف خذي.

وهكذا يتضح أنه إذا توقف الحفاظ على الحق على الفداء والتضحية، فإن الإسلام يأمر به ولا يتسامح مع من يمتنع عنه. وأيضاً فإن جفاف الإسلام وقسوته ربما يبعث الكثيرين على التخلي عنه، أو بالأحرى على عدم الإقدام عليه.

وواضح: أن مرونة الإسلام هذه لا يجب أن تفسر على أنها نوع من التساهل في الأحكام ليهون على البعض اعتناق الإسلام، بل هي من قبيل الحفاظ على الإسلام والمسلمين، حيث لا ضرر على المبدأ والرسالة. وليكن ذلك هو الفرق بين التقية وبين النفاق الذي يحلو للبعض أن ينز به - ظلماً وعدواناً - من يعتقد بمشروعية التقية^(١).

مشروعية التقية :

في الإسلام كل شيء يعود إلى القرآن والسنة الشريفة، فإن رأينا مرامنا في القرآن أخذنا به وإن لم نجد عدنا إلى السنة النبوية، وسنة المعصومين عليهم السلام.

المشروعية من القرآن :

الآية ١٠٦ من سورة النحل وهي: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾.

(١) الصحيح من سيرة النبي الأعظم عليه السلام، جعفر مرتضى العاملي ٢: ٤٤، طبعة قم.

سبب نزول الآية : إنَّ الصحابي الجليل عمار بن ياسر عندما أخذه بنو مخزوم وعدَّوه عذاباً شديداً، وكان من قبل قد عذَّب أبواه، وماتا تحت التعذيب، ولما رأى شدة العذاب تتراكم عليه وهم يطلبون منه أن ينال من النبي ﷺ، وبعد الإكراه الشديد نال من الرسول الأعظم ﷺ فتركوه، ولما تركوه قام ينفض غبار الموت عن نفسه، وتوجَّه إلى الرسول الأعظم ﷺ يخبره، وهو بحالة مأساوية كبرى. فأقْبى النبي ﷺ وقال : لم أترك ولم أرتدَّ، وإنَّما أكرهوني على ذلك حتى نلت منك، وذكرت آهتهم بخير فقال له النبي ﷺ : «كيف تجد قلبك يا عمار ؟» قال : إنَّه مطمئن بالإيمان يا رسول الله ﷺ قال : « لا عليك، فإن عادوا فعد لما يريدون، فقد أنزل الله فيك : ﴿ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ .

الآية الثانية : من سورة آل عمران ٣٨ ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ ثَمَانًا ﴾ .

الآية الثالثة : ٢٨ من سورة غافر. ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا يَقُولُ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ .

والقول بأنَّها منسوخة لا مثبت له، بل خلاف ذلك هو الثابت كما سترى. وقد روى الكليني عن عبد الله بن سليمان قال : «سمعتُ أبا جعفر عليه السلام يقول : «إنَّ الحسن البصري يزعم : أنَّ الذين يكتُمون العلم يؤذي ربح بطونهم أهل النار» فقال أبو جعفر عليه السلام : «فهلك إذن مؤمن آل فرعون؛ ما زال العلم مكتوماً منذ بعث الله نوحاً عليه السلام، فليذهب الحسن يميناً وشمالاً فوالله ما يوجد العلم إلا ها هنا» .

فاستدلال الإمام بالآية يدل على عدم كونها منسوخة كان متسالمًا عليه لدى العلماء آنفئذ^(١).

(١) الصحيح من سيرة النبي الأعظم ﷺ، جعفر مرتضى العاملي ٢ : ٤٠، طبعة قم.

المشروعية من السنة :

- ١ - ما جاء : أن مسيلم الكذاب قد أتى برجلين ، فقال لأحدهما تعلم إنِّي رسول الله ؟ قال : بل محمد رسول الله ، فقتله . وقال للآخر ذلك . فقال : أنت ومحمد رسول الله . فخلّى سبيله ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : «أما الأول فضى على عزمه ويقينه ، وأما الآخر فأخذ برخصة الله ، فلا تبعة عليه .
- ٢ - ما رواه السهمي عنه ﷺ : « لا دين لمن لا ثقة له » ... والصحيح لا تقية له كما يدل عليه ما رواه شيعة أهل البيت عنهم عليهم السلام .
- ٣ - قصة عمار بن ياسر المعروفة وقول النبي ﷺ له : « إن عادوا فعد » ، وهي مروية في مختلف كتب الحديث والتفسير .
- ٤ - استعمال النبي ﷺ نفسه للتقية ، حيث بقي ثلاث ، أو خمس سنوات يدعو إلى الله سرّاً وهذا مجمع عليه ، ولا يرتاب فيه أحد .
- ٥ - إن الإسلام يخبر الكفار في ظروف معينة بين الإسلام ، والمجزية ، والسيف ... وواضح أن ذلك إغراء بالتقية ، لأن دخولهم في الإسلام في ظروف كهذه لن يكون إلا لحقن دماهم كما ذكره البعض .
- ٦ - قبول المنافقين في المجتمع الإسلامي ، وتألفهم على الإسلام على أمل أن يتفاعلوا مع هذا الدين ويستقر الإيمان في قلوبهم .

أمثلة من التاريخ الإسلامي :

الشرعية التاريخية : ويقصد بها عمل الذين يفهمون التشريع ويعملون به سرّاً ، أو جهراً بحسب الظروف .

- ١ - إن رجلاً سأل ابن عمر « أدفع الزكاة إلى الأمراء ؟ فقال ابن عمر : « ضعها في الفقراء والمساكين » . قال : فقال لي الحسن : « ألم أقل لك أن ابن عمر إذا أمّن الرجل قال :

ضعها في الفقراء والمساكين؟»^(١).

٢ - وفي خطبة لمحمد بن الحنفية : « لا تفارق الأمة . اتق هؤلاء القوم - يعني الأمويين - بتقيتهم ولا تقاتل معهم . قال : قلت وما تقيتهم ؟ قال : « تحضرهم وجهك عند دعوتهم ، فيدفع الله بذلك عنك ، وعن دمك ودينك ، وتصيب من مال الله الذي أنت أحق به »^(٢).

٣ - استفتي مالك بالخروج مع محمد بن عبد الله بن الحسن ، وقيل له : في أعناقنا بيعة لأبي جعفر المنصور ، فقال : « إنما بايعتم مكرهين ، وليس على مكره يمين ».

٤ - روى القرطبي عن الشافعي والكوفيين القول بالتقية عند الخوف من القتل وقال : « أجمع أهل العلم على ذلك »^(٣).

٥ - لقد اتقى عامة أهل الحديث وكبار العلماء ، وأجابوا إلى القول بخلق القرآن ، وهم يعتقدون بقدمه ولم يمتنع منهم إلا أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح . وحتى أحمد فإنه قد تأق في ذلك ، فكان إذا وصل إلى الخنق قال : « ليس أنا بمتكلم » كما أنه حين قال له الوالي : « ما تقول في القرآن ؟ » أجاب : « هو كلام الله » ، قال : « أخلوق هو ؟ » قال : « هو كلام الله لا أزيد عليها » ، مع أنه هو نفسه يقول : « إن من قال : القرآن كلام الله ووقف فهو من الواقعة الملعونة »^(٤).

أمثلة من تاريخ الأنبياء والمصلحين :

يظهر من الاستقراء التاريخي أن التقية مشروع عالمي لحفظ النفوس والأموال عندما يتعرض الإنسان لضغط عقائدي ، أو سياسي . وخصوصاً إذا كان من المصلحين

(١) مصنف عبد الرزاق ٤ : ٤٨ . (٢) مقاتل الطالبيين : ٢٨٣ .

(٣) تفسير القرطبي ١٠ : ١٨١ .

(٤) الصحيح من سيرة النبي الأعظم ﷺ ، جعفر مرتضى العاملي ٢ : ٤٢ ، طبعة قم ، الأصول الكافي للكليني ٢ : ١١٧ .

التغييرين، أو من أتباعهم الذين لو عرفهم أصحاب الإمتيازات لقطعوهم أشلاء متناثرة.

وعندما يُسأل الإمام الصادق عليه السلام عن التقية يؤكد الشيء الذي قلناه، فيقول: «التقية من دين الله أي والله من دين الله ولقد قال يوسف عليه السلام: ﴿ أَيُّهَا الْعَبْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾، والله ما كانوا قد سرقوا شيئاً. ولقد قال إبراهيم: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ والله ما كان سقيماً. بهذه الكلمات لحّص الإمام الصادق عليه السلام التقية عند الأنبياء، فيوسف عليه السلام عندما اتهم إخوته بالسرقة لم يسرقوا شيئاً، وإنما كان يهدف من وراء ذلك الاتهام أن يضم أخاه إليه، وإلى هذا أشارت الآية الكريمة: ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيُّهَا الْعَبْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾. ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ... ﴾ يوسف ٧٦.

وإبراهيم عليه السلام الذي كان في زمن يتعاطون فيه علم النجوم، فأوهمهم أنه يقول بمثل قولهم فقال: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ تورية - فتركوه ظنّاً منهم أن نجمه يدلّ على سقمه، ومعنى سقيم أنه سقيم القلب حزين على إصرار قومه على عبادة الأصنام. وفي قوله: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ تورية كما ذكرنا - وجاء في الأخبار تجويز الكذب والتورية، لأجل التقية.

وموسى عليه السلام فعنده تتجلى التقية والكتمان، والسرية في العمل الرسالي. فهو ترميه أمّه باليم امتثالاً لأمر الله سبحانه وتعالى خوفاً عليه من فرعون مصر وهو أيضاً: لاحظ النصوص الآتية:

﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ... ﴾ القصص آية ١٨ ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ القصص آية ٢١.

هرب موسى عليه السلام متخفياً، حتى لا يعثر عليه أحد من رجال فرعون مصر فيذبجه فرعون بعد أن قتل رجلاً خطأً، وعندما أمره بأن يكون ذلك في المسير ليلاً. ﴿ فَاسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴾ الدخان آية ٢٣.

ومؤمن آل فرعون الذي كان يكتُم إيمانه ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ... ﴾ غافراً آية ٢٨ خرج عن صمته وتقيّته عندما رأى نبي الله موسى يدعو إلى عبادة الله الواحد القهار، فجاء ليساهم مع موسى في نشر الدعوة بين الناس ويدعو إلى اتباع موسى عليه السلام.

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلْكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُمْتَدِّون ﴾ يس آية ٢٠.

هذا المؤمن الذي هو حزقيل كان يكتُم إيمانه عن فرعون مصر لأنه كان يعمل وزوجته عنده، فبان أمرهما، وقتل فرعون زوجة حزقيل. وبموتها ظهر أمر آسية عليها السلام زوجة فرعون الذي علّقها بالأوتاد عندما أثبتته على قتله المؤمنين، وأعلنت إيمانها. فكان نصيبها الموت صبراً واحتساباً. ماتت وهي تقول: ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ التحريم آية ١١.

وأوحى لها ربها أن ارفعي رأسك، رفعت رأسها فرأت البيت في الجنة، وقد بنى لها الدار فضحكت مستبشرة.

نوح عليه السلام :

ونوح عليه السلام كان يدعو إلى عبادة الخالق سبحانه وتعالى ليلاً ونهاراً، وسراً وعلانية، فلم يزد قومه إلا كفراً وطغياناً فشكا أمره إلى الله عز وجل، ورفع تقريره إليه بعد أن أعياه قومه وأتعبوه فقال: ﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَاراً ثُمَّ إِنِّي أَغْلَلْتُ لَهُمْ وَأَسْرَزْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً ﴾ نوح آية ٥ - ٩.

عندها أوحى له ربّه بأن يبني سفينة النجاة، فكان قومه يسخرون منه فيردّ عليهم: ﴿ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ هود آية ٣٨.

عيسى عليه السلام :

وعيسى عليه السلام الذي ظلّ يدعو أيضاً بسرية تامة ويلتفّ حوله الحواريون، فيجتمعون

سراً وخوفاً من اليهود مدة ثلاث وثلاثين سنة، حتى قبض اليهود عليه، وقرّروا أن يقتلوه ويصلبوه وأنى لهم ذلك !! ؟ فقد رفعه الله إليه. ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ... ﴾ النساء آية ١٥٧.

هذه صورة موجزة ولحمة سريعة عن أحوال الأنبياء في سير دعواتهم، وما تعرّضوا له من مخاطر ومحاذير جعلتهم يتخذون أقصى درجات الحيلة والحذر والكتان تقية؛ حتى ين الله عليهم بنجاح دعوتهم وتبليغ رسالات الله السماوية، ولن يخلف الله وعده. ﴿ وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ القصص آية ٥.

آراء وفتاوى لعلماء الجمهور :

الفخر الرازي : يذهب صاحب التفسير « فخر الدين الرازي » إلى القول : بأن التقية جائزة لصون النفس ولصون المال لقوله ﷺ : « حرمة مال المسلم كحرمة دمه ». ولقوله ﷺ : « من قتل دون ماله فهو شهيد »، ولأن الحاجة إلى المال شديدة، والماء إذا بيع بالغبن سقط فرض الوضوء. وجاء في الاقتصار على التيمم دفعاً لذلك القدر من النقصان، فكيف لا يجوز هنا والله العالم^(١).

وينقل الرازي عن الإمام الشافعي قوله : « إن الحالة بين المسلمين إذا شاكلت الحالة بين المسلمين والمشرّكين حلّت التقية محاماة للنفس »^(٢).

ويقول البخاري في صحيحه عن رسول الله ﷺ : « إننا نكشر في وجوه قوم، وقلوبنا تلعنهم »، ويضيف البخاري عن رسول الله ﷺ : « ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس »^(٣).

(٢) المصدر السابق.

(١) التفسير الكبير، الرازي ٨ : ١٣.

(٣) صحيح البخاري : ١٢ / ٥ / ٤.

وينقل ابن حزم عن الإمام أبي حنيفة : « إنَّ الاكراه بضرب سوط ، أو سوطين ، أو حبس ليس إكراهاً »^(١).

وعن أبو الحسن عن أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ : « إنَّها ستكون عليكم أئمة تعرفون منهم وتتكرون »^(٢).

وعن رسول الله ﷺ أيضاً : « إنَّكم سترون بعدي أثره ، وأموراً تنكرونها ، قال : أدوا إليهم حقهم وسلّموا الله الذي لكم ».

وأما الغزالي في باب ما رخص فيه الكذب : فيقول : « عصمة دم المسلم واجبة فمهما كان القصد سفك دم امرئ مسلم قد اختفى من ظالم كاذب فالكذب فيه واجب ، ومهما كان يتم مقصود الحرب ، أو إصلاح ذات البين . إنَّ استمالة القلب المجني عليه ألا يكذب . فالكذب فيه مباح إلا أنه ينبغي له أن يحترز منه ما أمكن »^(٣).

عودة إلى الوراء :

بعد مطالعة جديدة في مجلة الثقافة الإسلامية التي تصدر عن مستشارية سفارة الجمهورية الإسلامية بدمشق استفدت من كتابة بحث مطوّل كتبه أحد الأخوة في باكستان عن تطبيق التقيّة عند أهل السنّة .

تقيّة عبد الله بن عمر :

أخرج البخاري في صحيحه بسنده عن ابن عمر قال : « دخلت على حفصة ونسوانها تنظّف قلت : قد كان من أمر الناس ما ترين ، فلم يجعل لي من الأمر شيء . فقالت : « الحق بهم فإنهم ينتظرونك ، وأخشى أن يكون في احتباسك عنهم فرقة ، فلم تدعه حتى ذهب . فلما تفرّق الناس خطب معاوية فقال : من كان يريد أن يتكلّم في هذا الأمر

(٢) السنن الكبرى للبيهقي : ٢ / ٨ / ١٥٨ .

(١) ابن حزم ، المحلى ، المسألة ١٤٠٨ .

(٣) إحياء العلوم للغزالي ٣ : ١٣٧ .

فليطلع قرنه، فلنحن أحق به ومن أبيه. قال حبيب بن مسلمة: فهل أجبتة؟ قال عبد الله بن عمر: فحللت حبوتي وهممت أن أقول: «أحق بهذا الأمر منك من قاتلك وأباك على الإسلام، فخشيت أن أقول كلمة تفرق بين الجمع وتسفك الدماء، ويعمل على غير ذلك فذكرت ما أعد الله في الجنان. قال حبيب: حفظت وعصمت^(١).

قال بدر الدين العيني في شرحه على البخاري: «قوله: وقد كان من أمر الناس ما ترين أراد به ما وقع بين علي ومعاوية من القتال بصفين، واجتماع الناس على الحكومة بينهم فيما اختلفوا فيه، فراسلوا بقايا الصحابة من الحرمين وغيرهما وتواعدوا على الاجتماع لينظروا في ذلك، فشاور عبد الله أخته حفصة في التوجه إليهم أو عدمه، فأشارت عليه بالحقوق بهم، وقوله: «فلما تفرق الناس، أي: بعد اختلاف الحكمين أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص، خطب معاوية. وقوله: «... فليطلع لنا قرنه...» تعريض من معاوية بآب بن عمر، وقوله: أحق به، أي: بأمر الخلافة، وقوله: منه ومن أبيه -أبي عبد الله بن عمر ومن أبيه عمر بن الخطاب، وقول ابن عمر لمعاوية: «من قاتلك وأباك على الإسلام، أي: يقصد به علياً عليه السلام قاتل معاوية وأبا سفيان يوم أحد، ويوم الخندق وهما كافران. وقوله: «حفظت وعصمت» كلاهما على صيغة المجهول، واستصوب حبيب رأيه لأنه كان من أصحاب معاوية^(٢).

آراء وفتاوى لعلماء الإمامية:

يقول الشيخ الصدوق في اعتقاداته: اعتقادنا في التقية أنها واجبة، وأن من تركها كأنما ترك فرضاً لازماً كالصلاة، ومن تركها قبل ظهور المهدي عجل الله فرجه فقد خرج

(١) صحيح البخاري: ٧٨، كتاب الأدب، باب ٨٢، وصحيح مسلم: ٤٥، كتاب البر والعلّة ٢٢ باب مداراة من يتقى، حديث رقم ١٧٣.

(٢) عمدة القاري في شرح صحيح البخاري: ج ١٧ / ٨٥ / ١٨٦.

من دين الله ودين نبيه محمد ﷺ والأئمة عليهم السلام^(١).

وهنا يطرح سؤال هل التقية رخصة، أم عزيمة ؟

فالشيخ الصدوق : يراها عزيمة. أمّا غيره فيراها رخصة كما نقل عن المفيد.

١ - قال الشيخ المفيد رحمه الله : «إن التقية جائزة عند الخوف على النفس. وقد تجوز في حال دون الخوف، وكضروب الإستصلاح. وأقول : أنّها قد تمت أحياناً من وجوب وأقوال إنّها جائزة في الأقوال لكنّها عند الضرورة، وليس تجوز في الأفعال في قتل المؤمنين وما يغلب أنّه استفساد في الدين^(٢).

الشريف الرضي : قال الشريف الرضي رحمه الله : «التقية لا تدخل إلّا في الظاهر دون ما في الضمير. لأنّ من خوف غيره ليفعل أمراً من الأمور، إذا كان من أفعال القلوب لا يتمكن من معرفة حقيقة ما في قلبه، وإنّما يستدلّ عليه بإظهار لسانه على إبطانه. المحقّق الحلي : في شرائعه يقول : لو ولي وال من قبل جائر وكان قادراً على إقامة الحدود هل له إقامتها ؟ قيل : نعم. بعد أن يعتقد أنّه يفعل ذلك بإذن إمام الحقّ. وقيل : لا. وهو أحوط، ولو اضطره السلطان إلى إقامة الحدود جاز حينئذٍ إجابته ما لم يكن قتلاً ظليماً، فإنّه لا تقية في الدماء. وإن اضطر إلى العمل بمذاهب أهل الخلاف جاز، إذا لم يكن التخلّص من ذلك ما لم يكن قتلاً لغير المستحق فإنّه لا تقية في الدماء، وعليه تتبّع الحقّ ما أمكن.

وهناك آراء فقهية لعلماء معاصرين نتركها اختصاراً للوقت، ويتّضح لنا ممّا تقدّم من أحكام الفقهاء بشكل عام، ومن خلال آرائهم وفتاواهم : أنّ التقية جائزة عند الكثير من فقهاء المذاهب الإسلامية، وإن كان تركها أفضل من العمل بها. وهذا الرأي لا يتفرّد به فقهاء الإمامية كما ورد عن الشريف، بل وجدناه ولمسناه من خلال عرضنا لآراء علماء

(٢) أوائل المقالات المفيد : ٤٦٧، حقائق التأويل.

(١) اعتقادات الصدوق : ٣٦.

بقية المذاهب الإسلامية.

استعمال التقية عند الشيعة الإمامية :

عندما أصبح ولاء آل محمد شعاراً للثورة على الحاكم الجائر، قام الظالمون بعمليات إجرامية لا مثيل لها حتى في عصور التتار والمغول، ولاحقوا الموالين والمحبين لعلّي؛ ولم يسلم من هذه الملاحقات عالم، ولا طفل، ولا امرأة منذ العهد الأول حتى العهود المتأخرة، كان لا بدّ من العمل الذي يتناسب مع حفظ الوجود وحفظ الولاء. ولو أنّ الإنسان يستقرىء الأجواء الحربية، والتعسفية التي مارسها الظلمة مع شيعة آل البيت لظهر من هذا ما ملأ الطوامير، ولعسر عليه تعداد المجازر فضلاً عن تعداد القتلى، ولحصل على معلومات يشيب لها رأس الوليد فضلاً عن الكبار المحشورين في الزنانات. إزاء هذا كان لا بدّ من أمرين :

الأول : التسليم للحاكم الظالم والولاء له، وهذا لا ينسجم مع الطرح الإسلامي الصحيح. والثاني : مداراة هذا الحاكم ومسايرته للحفاظ على الدم والعرض والمال، بل وبقاء الفئة الحقّة تتعبّد على الولاء بمقدار ما يتيح الظرف ويساعد الزمن، حتى تنتهي الأزمة الكبرى فيحينئذ يتنفس الصبح، ويظهر لذي عينين.

ولقد سمعت المرحوم الشيخ محمد جواد مغنية يقول : سألتني بعض المتهوسين - الشيعة يقولون بالتقية !! ؟ قلت له : « لعن الله من ألجأهم إليها ».

ويرى الشيخ طاب ثراه أنّ سبب التقية ليس الشيعة، وإنّما هم الحاكمون الظالمون الذين طفق الكيل بإجرامهم وإساءتهم، ممّا اضطر الشيعة إلى هذا اللون من العمل وبالطبع أنّ الآخرين كانوا يماثلون الحكم، بل يساعدونه؛ بل يكونون عصاه الغليظة لضرب أي فئة ثائرة، أو مطالبة بحق، أو داعية لعدل.

ولو أنّ الفئات الأخرى، والشرائح الاجتماعية الأخرى مورس عليها من الظلم والتعسف ما مورس على الشيعة لسلمت واستسلمت لطاعة الحاكم، وأذعنّت لكل

جبروته، أو انقراضوا من هذا الوجود.

وعلى الناس أن يقيسوا الأمور لا من واقعهم المريج المتعامل مع الحاكم، بل من الواقع السيء الذي يعيشه الناس الآخرون، ليروا بعد ذلك أن الحاكم هو السبب في دفع الناس إلى هذا اللون من التعامل.

ولا غضاضة على إنسان يجامل الآخرين ليحفظ نفسه وعرضه ودمه وماله بل الغضاضة على من يبيع شرفه، وماله وكرامته لمن يدوسها، وشرفه لمن ينتهكه، وماله لمن يأكله مجاناً.

ولسوف يظهر من خلال البحث أن الأئمة عزّزوا مواقع الثورة الهادئة في شيعتهم باستعمال التقية، لتتضح الثورة وتزول الأزمة، ويأتي اليوم الذي تشع فيه الشمس.

التقية عند الأئمة عليهم السلام

عندما علم الأئمة عليهم السلام أن دولتهم ولّت، وإن رجعتهم بعدت، وإن الزمن ليس لهم، وإن الحكومات تلاحقهم وتلاحق شيعتهم ومواليهم؛ وإذا لم يسنوا للموالين طريقتهم بالتعامل لأصيبوا بحالتين: إما رفض يؤخذون معه ويدجون، وإما استسلام لأوامر الظالم يتلاشون معه ويدوبون. من هنا سنّ الأئمة عليهم السلام طريقة التقية التي حدثت مع الصحابة الكرام في زمن النبي ﷺ وحتموا على شيعتهم الإلتزام بها. وسوف نعرض على القارئ الكريم فصلاً من هذه الروايات لنرى كيف يأمر الأئمة أتباعهم ويلزمونهم باتباع هذه الطريقة ولا يقبلون منهم غيرها؛ حفاظاً عليهم لأنهم لو عاندوا وأبىدوا، لأبىد التشيع معهم. وخط التشيع لا يكون بغير الشيعة. ولقد اقتدى الموالون بأوليائهم عبر عاملين:

الأول: ما يتعامل به الأئمة أنفسهم، حيث يزورون السلطان ويأخذون جوائزه، ويدارونه ويعظمونه، كما يتعامل الناس، ليتأكد هذا السلطان أن الأئمة عليهم السلام ليسوا في

وارد اشعال الثورة عليه .

الثاني : إعطاء التعاليم وفق السلوك العام بما جعل الإمام مقصداً لجميع المسلمين دون استثناء . وفي هذا الجوّ المختلط حيث كان يُسأل الإمام عن العبادات ، كان يفتي بها وفق رأي الجمهور ؛ وكان أحياناً يختلط على العلماء ذلك وكان الإمام يشير إليهم إشارة يفهمون من خلالها المقصود ، وإذا صعب عليهم أمر انتهزوا الفرصة ليسألوا الإمام على انفراد ، ليلفخوا الموالين الموقف الواضح .

مواقف عامة :

روي عن الإمام الصادق عليه السلام : «التقية ديني ودين آبائي وأجدادي» . نص آخر : « من لا تقية له لا دين له »^(١).

١- الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام : تعامل مع الحكم الذي صادر منه الخلافة بعد أن مانع ما استطاع ، ولكنه بايع أخيراً ، ولم ينبس بنت شفة ، وسكت عن حقه طيلة خمس وعشرين سنة ؛ وكان شعاره : «لأسألك ما سلمت أمور المسلمين ، ولم يكن فيها جور إلا علي خاصة إلتماساً لأجر ذلك وفضله ، وزهداً فيما تنافستموه من زهوه وزبرجه»^(٢).

٢- الإمام الحسن بن علي عليه السلام بلغ من تقيته للحكم الأموي أنه كان يسمع سب والده الإمام علي عليه السلام ويكظم غيظه ويسكت ، مع أن معاوية خالف كل شروط الصلح ، ولم يكن بوسع الإمام أن يقف في وجه التيار الأموي الفاسد يومها ؛ وعندما جاءه بعض أصحابه وسلّموا عليه وعاتبوه عتاباً مرّاً ، حيث استهّلوا كلامهم بقول البعض : «السلام عليك يا مذلّ المؤمنين» . استوعبهم بكلمة قصيرة ، وطلب إليهم أن يبقوا أجلس بيوتهم حتى يستريح برّ ، أو يستراح من فاجر .

(١) عقائد الإمامية للشيخ المظفر : ١١٠ ، طبعة بيروت .

(٢) نهج البلاغة لمحمد عبده : ١٢٤ ، الخطبة ٧٣ .

٣- الإمام الحسين بن علي عليه السلام بقي الإمام ساكناً، وهو يتجرّع الغيظ ولم ينبس ببنت شفة، حتى بعد وفاة أخيه الحسن عليه السلام في زمن معاوية مع تفاقم الجور وأهله، واشتداد الوطأة على الموالين. وعندما سنحت الفرصة للثورة التاريخية عبّر عن خروجه بهذا المعنى: «إنما جعلت التقية ليحقن بها الدم فإذا بلغ الدم فليس تقية».

٤- الإمام علي بن الحسين عليه السلام: استطاع أن يلعب دوراً سياسياً بارزاً، ولم يشعر بذلك الحكم بأجمعه. إذ كان يتّقي الحكم والحكومة، في وقت التهاب الثورة على الأمويين كان الإمام خارج نطاقها. وعندما اندلعت في العراق بقيادة المختار كان فارسها، ومشجّعها لكن بذكاء سياسي خارق، حيث لم يستطع الحكم أن يسجّل عليه في هذه المعارك ملاحظة واحدة.

٥- الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام: هو المنظر للتقية في زمن كان يقول: «لوحقت شيعتنا تحت كل حجر ومدر، وإذا قيل للإنسان كافر، أو زنديق أو مشرك أهون عليه من أن يقال له شيعي». ومن أقواله: «التقية ديني ودين آبائي وأجدادي»^(١).

٦- الإمام الصادق: وهو الذي ثنيت له الوسادة، وفتح من خزائن علومه ما ملأ الدنيا. ولم يترك علماً من العلوم الكونية يومها إلّا وتكلّم فيه. وكانت هناك إشارات حتى تسلّم الخلافة إليه، ومع ذلك رفض لأنّ الثورة التي اندلعت لم يكن هو من ورائها، وعندما استلم الحكم أبو العباس السفاح، ثمّ أخوه المنصور الدوانيقي سلّط الضوء على الإمام أيّما تسليط، لكن الإمام كان أحذر من ذئب.

والإمام علّم أتباعه السلوك الصحيح في هذا الخضم الهائج. ومن كلامه في هذا الموضوع، «التقية ترس المؤمن. التقية حرز المؤمن».

(١) مروج الذهب للمسعودي، ونقل هذا النص أيضاً عن الإمام الصادق إذ لعلّ الإمام الصادق أخذ هذا عن أبيه.

٧- الإمام موسى بن جعفر عليه السلام : الذي عانى ما عانى من ظلم هارون الرشيد ، هو الذي كان يأمر علي بن يقطين أن يبغى في الحكم ، وأن يتوضأ ويصلي وفق آراء فقهاءهم ، ويبعث علي بن يقطين بالهدايا للإمام فيأخذ شيئاً ويرد الباقي ، ويوصي بالاحتفاظ به . حتى حصلت وشاية على علي بن يقطين من قبل خادم له ، فبعث خلفه الرشيد وسأله عن الدراعة لعلمه أنها أهديت لموسى بن جعفر ، لكن علي أجاب هي موجودة عندي محتومة بختمي لا يفكها أحد . ولما جيء بها ورآها هارون تغير ، وعاد إلى وضعه مع علي . وروي أن علي بن يقطين ضاق قلبه من أعمال الظلمة ، وكان يراجع الإمام ليأذن له في الترك ، فلم يأذن له الإمام ويقول له : « لا آذن لك بالخروج من عملهم واثق الله » .

٨- الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام : فرضت على الإمام ولاية العهد مع فارق كبير بين عمر المأمون الذي كان يعادل ثلاثين ، وعمر الإمام الذي كان يعادل سبعاً وخمسين ، ولو عكس لكان مقبولاً . وبعد ولاية العهد حاول المأمون حصار الإمام من خلال الحرس المنتدبين من الدولة لمراقبته .

ولكن الإمام أنقاهم جميعاً ، واستطاع أن يصل إلى كل القلوب ، ومع لياقة المأمون وحنكته ما استطاع أن يستفيد من الإمام حتى بعد ولاية العهد . فكان الإمام يعبر : « أن أمير المؤمنين عرف من حقنا ما جهل غيره ، فوصل أرحاماً قطعت » ^(١) .

٩- الإمام محمد الجواد : الذي عايش ملكين من ملوك بني العباس : الأول هو المأمون الذي زوجه ابنته ، وكانت تراقبه بكل شيء من الداخل . وكان الإمام يعلم بذلك لهذا كان يتقي الحكم ، ولم يستطع المأمون أن يسجل عليه أية ملاحظة .

والثاني : هو المعتصم الشرس الذي اتفق مع ابن أخيه العباس بن المأمون ، وابنة أخيه زوجة الإمام على التشديد على الإمام . وفي هذا الجو العصيب والأمني ما استطاعوا أن

(١) الحياة السياسية للإمام الرضا ، جعفر مرتضى العاملي : ٢٨٩ .

يأخذوا منه شيئاً.

نعم إنهم استطاعوا أن يخففوا من ارتياد الشيعة إلى بيته، حيث كانت الأجهزة الأمنية تلاحق كل من يعرف أنه من شيعته.

١٠ - الإمام علي الهادي: لقد كان في زمن المتوكل العباسي المشهور بعداوته لآل البيت، وهو الذي حرث قبر الحسين عليه السلام، ومنع الناس من زيارته، وقطع الأيدي بعد أن أخذ كل ما عندهم من أموال. ومع ذلك كان الإمام يجامله ويداريه ويتقيّه؛ حتى أنه مرة جيء به إلى القصر فطلب إليه المتوكل أن ينشده شعراً فأنشده من الشعر الوعظي ما أبكاه.

١١ - الإمام الحسن بن علي العسكري: وهو الذي عسكروا عليه، وجعلوه بين مراكز العسكر. ومع ذلك استطاع أن يخرج السلطة ويفضح كل مؤامراتهم. وكانت الأموال تجبى للإمام، وكان يوزعها على الفقراء بشكل منظم مع علم الجميع بحصاره والتضييق عليه.

١٢ - وأما الإمام المهدي أرواحنا لتراب مقدمه الفداء: فقد استعمل التقية بالغيبة الصغرى، ووضع وكلاء أربعة. ولا يزال يستعمل التقية في زمن الغيبة الكبرى حتى يأذن الله له بالفرج.

وهكذا كان أئمتنا ملتزمين بطريقة التقية - وهي طريقة حضارية - لكل معارضة تريد أن تنافس الحكم، وتحافظ على جماعتها في ظل الحراب الإرهابية والأحكام الفرعونية، والأحكام العرفية والإعدامات على الظنة والتهمة.

وعندما يلاحظ الإنسان التاريخ الإسلامي يجد الأمثلة الكثيرة جداً في جميع أبواب الفقه. وأن الأئمة عليهم السلام لم يتركوا للآخرين مجالاً ومنفذاً ينفذون منه إلى الشيعة ليلاحقوهم، مثلاً في باب الصلاة يأمر الإمام أتباعه أن يكونوا في الصف الأول لينظر

الناس إليهم، ويعترفوا بأنهم من المواظبين على صلاة الجمعة والجماعة^(١).
في باب الصوم نجد الإمام الصادق الذي لم يثبت عنده العيد يعيد مع القوم. وعندما يذهب إلى المنصور يسأله المنصور الدوانيقي: أصائم أبا عبد الله أم مفطر؟ فردّ عليه الإمام بأسلوب الحكيم إن أفطر السلطان أفطرنا. فيصبح المنصور لغلماناه: هاتوا بالطعام لابن عمي؛ ينتهز الفرصة ليختبر الإمام، فيؤتى للإمام بالطعام فيأكل. وعندما يسأله أصحابه عن ثبوت العيد يقول لهم: لم يثبت. فيقولون له كيف وقد أكلت؟ فأجابهم: «لأن أفطر يوماً وأقضيه أحبُّ إليَّ من أن تقطع رقبتى - أو عنق -»^(٢).

وفي باب الحجّ يعلم الإمام الصادق أمير الحجّ كيف يمشي، وكيف يقف. وعندما يسقط ويقف أمير الحجّ يأمره بالإسراع حتى لا يقف موكب الحجيج^(٣).

وأما في باب الحملات والعمل الإجتماعي من تشييع جنازة، وعيادة مريض والحفاظ على الجار وما إلى ذلك؛ فحدّث ولا حرج، فقد ملأ الأجواء بطيب الأحاديث بين الأتنام لتأديب أصحابه، حتى كاد البعض يظنّ أنّ الشيعة والسنة سواء بنظر الإمام.

ومن خلال مواقف الأئمة مجتمعين، ومنفردين تكوّن موقف واحد عند الجميع وهو: إنّ الوقوف في وجه الظالم، وحرمة التعامل معه من أوضح سمات المذهب الشيعي، وتعاليم آل رسول الله ﷺ. وأنّ الاستراتيجية التي تبدأ برسول الله وتستمر حتى خروج القائم؛ تقتضي مرونةً ومجاملة للحكّام، ولأتباعهم وللنظام بوجه عام، حتى يتمكّن المذهب من الوصول إلى صدارة الأئمة ويعترف به الجميع عندما تسنح الفرصة لذلك.

(١) راجع روايات هذا الباب في الوسائل تجد الأحاديث متواترة في ذلك باب الصلاة، ج ٥.

(٢) الكافي ٤: ٨٣.

(٣) باب النفر في الكافي.

وقد دأب العلماء الأعلام بالعمل الجادّ في هذه الطريقة، وكانت أحكام التقية موزعة ومنثورة في ثنايا الروايات والكتب الفقهية. ولم أطلع على بحث جامع للتقية قبل الشيخ الأنصاري، ولعلّه قصور منّي.

لكن المقدّس الأنصاري في كتابه المكاسب بيّن أموراً عامّة في بداية الكتاب ممّا يظهر منه أنّه لا مورد للقاء مع الحكماء الجائرين، ثمّ أناخ رحله على الوسط في التعامل بعد مناقشة آراء العلماء الأعلام في ذلك كما يظهر لنا من ثنايا حديث تحف العقول. فالشيخ في بداية المكاسب يروي هذه الرواية، ويعتبر أنّ ولاية الجائر دروس الحقّ كلّها.

تقول الرواية: «وأما وجه الحرام من الولاية فولاية الوالي الجائر، وولاية ولاته؛ فالعمل لهم والكسب لهم بجهة الولاية معهم حرام من جهة المعونة له معصية كبيرة من الكبائر.

وذلك أنّ في ولاية والي الجائر دروس الحقّ كلّها، وإحياء الباطل كلّها، وإظهار الجور والفساد، وإبطال الكتب وقتل الأنبياء، وهدم المساجد، وتبديل سنن الله وشرائعه» المكاسب، الجزء الأوّل.

تقسيمات التقية عند الشيخ الأنصاري

١- لم يتعرّض في التقية لتقية الكفّار، وإنّما تعرّض لتقية النظام الجائر، والحاكم الجائر، والمجتمع المتعصّب الحاقداً.

٢- الخوف على النفس بالعمل مع القوم.

٣- إقامة الشعائر الدينية خلاف مذهبه ومعتقده الديني.

٤- الضغط الشديد للبراءة من أوليائه المنصوبين حججاً على الخلق من قبل النبي

الأعظم ﷺ.

٥- سبّ الأئمة، وخصوصاً سبّ الإمام علي عليه السلام.

٦- مخالفة التقية أحياناً في موجب التقية .

٧- الخوف الشخصي ، والخوف النوعي .

٨- وجود المندوحة في العمل أو لا .

٩- الصلاة خلف المخالف ، وخصوصاً النواصب .

١٠- الأحكام التكليفية ، الوجوب ، الحرام ، المستحب ، المكروه ، المباح .

١١- حكم إعادة الصلاة في الوقت ، أو قضائها لو صلى تقية .

هذا أهم ما في رسالة التقية ، والتي تتداخل فيها بعض الأقسام ببعض .

أما الأول : يتعرض الشيخ رحمته لرواية واضحة في استعمال التقية عند الخوف على الدين . وهو عصمة الإنسان المؤمن . فينقل رواية عن الإحتجاج يقول فيها أمير المؤمنين لبعض أصحابه : « أملك أن تستعمل التقية في دينك ، فإن الله عز وجل يقول : ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتَ ﴾ .

وقد أذنت لك في تفضيل أعدائنا إن ألباك الخوف إليه ، وفي إظهار البراءة إن حملك الوجل عليه ، وفي ترك الصلوات المكتوبات إن خشيت على حشاشتك الآفات والعاهات ، وتفضيلك أعدائنا عند خوفك لا ينفعهم ولا يضرنا ، وإن إظهار براءتك عند تقيتك لا يقدح فينا . ولأن تبرأ منا ساعةً بلسانك ؛ وأنت موالٍ لنا بمجانك لتتقي على نفسك روحها التي بها قوامها ، ومالها الذي بها قيامها ، وجاهاها الذي به تمسكها ، وتصور بذلك من عرف من أوليائنا ؛ فإن ذلك أفضل من أن تتعرض للهلاك ، وتنقطع عن عملك في الدين وصلاح إخوانك المؤمنين . وإياك ، ثم إياك ثم إياك أن تترك التقية التي أمرتك بها ، فإنك شاحط بدمك ودماء إخوانك ، فتعرض لنفسك ولنفسهم للزوال فتذلم في أيدي أعداء الدين . وقد أمرك الله بإعزازهم . فإنك إن خالفت وصيتي كان ضررك على

إخوانك ونفسك أشد من ضرر الناصب لنا الكافر بنا»^(١).

مناقشة : وفيها دلالة على أرجحية اختيار البراءة على العمل ، بل تأكد وجوبه ، لكن في أخبار كثيرة ، بل عن المفيد في الإرشاد أنه : قد استفاض عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال : « ستعرضون من بعدي على سبي ، فسبوني ، ومن عرض عليه البراءة فليمدد عنقه ، فإن برئ مني فلا دنيا له ولا آخرة »^(٢) . وظهرها حرمة التقية فيها كالدماء .

إضافة : وتوجد رواية أخرى في نهج البلاغة شهيرة : « أما أنه سيظهر عليكم بعدي رجل رحب البلعوم مندحق البطن يأكل ما يجد ، ويطلب ما لا يجد فاقتلوه ، ولن تقتلوه . ألا وإنه سيأمركم بسبي والبراءة مني ؛ أما السب فسبوني فإنه لي زكاة ولكم نجاة ، وأما البراءة فلا تتبرؤا مني ، فإني ولدت على الفطرة وسبقت إلى الإيمان والهجرة »^(٣) . ويرد الشيخ رحمه الله بردين :

الأول : بأنه يمكن حمل هذه الروايات بأن المراد منها الاستمالة ، والترغيب إلى الرجوع حقيقة عن التشيع إلى النصب .

ثانياً : بأن النهي عن التبري مكذوب على أمير المؤمنين ، وأنه لم ينه عنه . ففي موثقة مسعدة بن صدقة قلت لأبي عبد الله عليه السلام : إن الناس يروون عن علي عليه السلام أنه قال على منبر الكوفة : أيها الناس إنكم ستدعون إلى سبي فسبوني ، ثم تدعون إلى البراءة فلا تتبرؤا مني . فقال عليه السلام : ما أكثر ما يكذب علي . ثم قال : إنما قال : ستدعون إلى سبي فسبوني ثم تدعون إلى البراءة مني ؛ وإني لعلي دين محمد ﷺ . ولم يقل لا تتبرؤا مني .

(١) مصدرها الإحتجاج كما في المتن لكن نقلنا عن المكاسب باب التقية .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) نهج البلاغة : ١١٥ ، مؤسسة الأعلمي ، طبعة بيروت .

فقال السائل: أرايت أن اختار القتل دون البراءة؟ فقال: واللّه ما ذاك عليه، ولا له إلا ما مضى على عمار بن ياسر، حيث أكرهه أهل مكّة وقلبه مطمئن بالإيمان فقال النبي ﷺ: يا عمار إن عادوا فعد.

مناقشة أخرى: كأنّ الشيخ رحمه الله لم يثبت عنده صحّة الروايات القائلة بعدم ترك البراءة؛ خصوصاً أنّه لم يعتمد رواية نهج البلاغة الواضحة، والمنسجم ذيلها مع رأسها. أو لأنّه يرى أنّ نهج البلاغة قائم على المراسيل وليس على المسانيد، وهو رأي يراه كثيرون.

وعندما نعود إلى مصادر نهج البلاغة نجد الكثير من الخطب صحيحة ومتواترة أيضاً. فهل نرد نهج البلاغة لجرّد عدم وضوح السند عندنا؟ أو نفتش لنحصل على السند؟

والظاهر أنّ الشيخ المقدّس لم يكن عنده وقت لمراجعة أسانيد النهج، أو لم يظهر في زمانه من شمر عن ساعد العزم، وفتش عن مصادر هذا السفر الجليل الذي هو من أفضل الكلام بعد كلام الله وكلام رسوله، والذي قيل في حقّ كلام صاحبه: كلامه فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق. وطبعاً يخرج النبي ﷺ تخصّصاً فيصبح فوق كلام المخلوق ما عدا النبي ﷺ.

ومن ناحية ثانية - إنّ رواية نهج البلاغة التي تقول: أمّا السبّ فسبّوني، فإنّه لي زكاة ولكم نجاة، وأمّا البراءة فلا تبرّوا مني. فهي ناظرة إلى الجوّ اللاهب الذي اعتمده الأمويون، والذي بقي ثقله ستين عاماً، حتّى هرم الكبير وشاب الصغير. فلو أنّ الشيعة كلّها عرّضوا على العذاب تبرّوا من علي، ويعلن ذلك على الملأ لما بقي أثر صغير أو كبير لحبّ علي عليه السلام في نفوس الناشئة.

وبالتالي لكان يوجد جيل، بل أجيال لا تعرف إلا بغض عليّ وعداوته. أمّا عندما يصمد رجل من الثوار كحجر بن عدي الكندي، فيذبح ولده أمامه ويقال

له : تعجّلت الشكل يا حجر. فيقول : قدّمته لأنّي خفت أن يرتدّ عن ولاية علي بن أبي طالب عندما يرى السيف على رقبتى. فثقل هذا الموقف سوف يلهب الجوّ، ويشعل الأرض، ويزلزل الدنيا فوق رؤوس الظالمين. ويؤسس لثورة ملوّها التضحية والفداء وحب الإستشهاد، واستعذاب الموت في ظلّ ولاية آل محمّد.

ومن هنا لكي نفهم النصّ، علينا أن ندرس ظروف النصّ وأبعادها الاستراتيجية والتأريخية، وماذا تهدف ؟ حتى نعرف مقاصد الإمام منها.

والإعتماد على رواية عمار بن ياسر وقول النبي : إن عادوا فعد. فإنّه يفيد الشخص ولا يفيد الخطّ فعمل الإمام ناظرٌ إلى هذا المعنى وهذا المستقبل بالإضافة إلى الفرق بين الزمنين. ففي زمن عمار كان المسلمون يعدّون على الأصابع. فإبادتهم على طريقة ياسر وسمية سوف يصفي الحركة الإسلامية في فجر الدعوة، ويمحوها من الوجود. فكان لا بدّ من إعطاء الفرصة، والسماح لمن قلبه مطمئن بالإيمان كعمار بن ياسر. ولا نستطيع أن نسري هذه الحالة بعد امتداد حركة التشيع، ونمنع الحالة الجهادية والحركة الشعبية من النهوض، ونحمد على النصّ دون الرجوع إلى حركة الواقع وأهميّة الثورة.

والذي أراه : إنّه إن صحّت معنى رواية النهج سنداً كما صحّت مبنى ومدلولاً نفهم منها أنّ الإمام يريد أن يثبت الخطّ بدل أن يعذر الشخص ؛ إذ قد تكون الفترة التي مرّ بها التشيع لآل البيت أقسى بكثير من الفترة التي كان فيها عمار. وفي هذه الحالة لا بدّ من توضيحية تكون بمستوى المرحلة، وليس هناك أفعال في نفوس الأجيال من دماء الشهداء الذين ذبحوا على مذبح الولاء لآل البيت ليبقى خط التشيع منهجاً لاجباً، وإلى الأبد.

ومن هنا كان الإمام عليه السلام يمنع التقية في بعض الموارد، لتبقى حركة التصحيح مستمرة. وهذا يساعدنا في إنجاح الفكرة التي قلناها.

منها : إنّ التقية لا يجوز أن تصل إلى الدماء ، فلو خفت على نفسك مثلاً - فإنّك تسائر القوم في كثير من أعمالهم . ولكن لا يمكن للموالي أن يقتل إنساناً مؤمناً بمجاملة للحاكم الجائر .

ومنها : لا تقية في شرب النبيذ ، والمسح على الخفين ، ومتعة الحج . وهذا يعني : أنّ مجموع الروايات يجب أن تقرّ حين تستشف منها رؤية الفلسفة الصحيحة بدل أن نعتد على رواية أو روايتين ثمّ نعمل بها . ومما يجدر الإشارة إليه أنّ الإصرار على عدم التقية في متعة الحجّ وبيانها للناس أرجع الجميع إلى الصواب ؛ واليوم جميع المسلمين على اختلافاتهم لا يعملون بها ، مع أنّه قد عمل بعد النبي ﷺ في زمن الخليفة الثاني ، وقد ترك المسلمون رأي عمر وعادوا إلى ما كانوا عليه في زمن النبي ﷺ .

والشيخ يتحدّث عن التقية في مقامات :

فيتحدّث عن الحكم التكليفي ، والحكم الوضعي . والتقية تنقسم إلى الأحكام الخمسة : إلى الواجب ، والحرام ، والمستحب ، والمكروه ، والمباح .

فالواجب : ما كان لدفع الضرر الواجب . والمستحب : ما كان فيه التحرّز عن معارضة الضرر - مثلاً لو ترك معاشرّة الآخرين ربّما يفضي به ذلك إلى الضرر عليه . والمكروه : ما كان تحمّل الضرر أولى . ويشير الشيخ إلى أمور هامّة ، ففي المستحب لا يجوز للمؤمن المتقي أن يتعدّى دائرة النصّ . مثلاً إذا ورد نصّ في حسن المعاشرّة معهم - مثل زيارة المرضى ، وتشيع الجنائز ، والصلاة في مساجدهم فلا يجوز التعدّي إلى النيل ، وسبّ رؤساء الشيعة للتحبّب إليهم .

وهذا أمر ينسحب إلى أمور كثيرة جدّاً ، حيث يعمد البعض إلى تشويه صورة جماعته لإرضاء الخصوم المذهبيين ؛ ولو على حساب كرامة الشيعة وتدنيس شرف جماعته .

وأما في المقام الثاني : فيبحث الشيخ في مسألة ترتيب آثار العمل الباطل على الواقع

تقية، وعدم ارتفاع الآثار بسبب التقية؛ إذا كان دليل تلك الآثار عاماً لصورتي الاختيار والاضطرار، فلو احتاج لأجل التقية إلى التكتف في الصلاة، أو السجود على ما لا يصح السجود عليه، أو الأكل في نهار شهر رمضان، أو فعل بعض ما يحرم؛ فلا يوجب ذلك ارتفاع أحكام تلك الأمور بسبب وقوعها تقية. نعم لو قلنا بدلالة رفع التسعة على رفع جميع الآثار، والمقصود بالتسعة الحديث المشهور بحديث الرفع: رفع عن أمتي تسعة أشياء منها ما اضطرّوا إليه، وما أكرهوا عليه. فن اضطرّ إلى الأكل والشرب تقية كما فعل الإمام الصادق عند المنصور، وقال للمنصور: إن أفطر السلطان أفطرنا. وأراد المنصور إخراج الإمام فأمر بتقديم الطعام له فجاءوا له بالطعام فأكل منه، ولما سأله أصحابه كيف أكلت؟ قال لهم: لأن أفطر يوماً وأقضيه أحب إلي من أن يضرب عني^(١).

وبهذا يظهر أن الذي يضطرّ إلى الأكل والشرب تقية فقد اضطرّ إلى الإفطار. المقام الثالث: في حكم الإعادة والقضاء إذا كان المأتي به تقية من العبادات فنقول: إن الشارع إذا أذن في إتيان واجب موشع على وجه التقية؛ إما بالخصوص كما لو أذن في الصلاة متكتفاً حال التقية، أو بالعموم كأن يأذن بامتناله أوامر الصلاة، أو مطلق العبادات على وجه التقية أو بالعموم كأن يأذن له بامتناله أوامر الصلاة أو مطلق العبادات على وجه التقية كما هو الظاهر من أمثال قوله عليه السلام:

التقية في كل شيء إلا في النبيذ والمسح على الخفين ونحوه. ثم ارتفعت التقية قبل خروج الوقت كأن لم يبق عنده حرج ويستطيع أن يعيد. فهل يجب عليه الإعادة؟ أو أن الذي أتى به من الصلاة والوضوء وفق أحكام القوم مجزياً؟ وكذلك لو كان ذلك خارج الوقت فهل يجب عليه القضاء في الخارج؟

(١) راجع ما ذكر في بحث تقية الأئمة.

الظاهر أنَّ عمله صحيح. لأن الكلي كما يسقط بفرده الإختياري كالصلاة في بيته يسقط في فرده الإضطرابي كالصلاة جماعة مع القوم متكثفاً. هل يشترط في التقية وجود المندوحة أو لا ؟

مثلاً: هل تصح الصلاة إذا كان وقتي لا يسمح لي أن أذهب لأصلي في مكان آخر ؟ وإلا فصلاقي لا إشكال في صحَّتها وفق أحكام الآخرين. لكن لو كان معي سعة من الوقت فهل يبقى الحكم ذلك ؟

الظاهر من جميع الآراء والفتاوى، وأخلاق الروايات أنَّه لا فرق بين وجود المندوحة وعدمها. فلو صلى بوقت ضيق، أو وقت موسّع لا يحتاج إلى الإعادة، أو القضاء. لكنَّ بعض الروايات لا توافق على هذا، حيث ورد فيها نهْي عن ذلك. حيث ورد عن العالم موسى بن جعفر عليه السلام قال : لا تصلَّ خلف أحد إلا خلف رجلين : أحدهما من تنق به وبدينه وورعه، وآخر من تتقي سيفه وسوطه وشره وبوائقه. فصلَّ خلفه على سبيل التقية والمداراة. وعن دعائم الإسلام : عن أبي جعفر الثاني وهو الجواد عليه السلام : لا تصلُّوا خلف ناصب ولا كرامية ؛ إلا أن تخافوا على أنفسكم أن تشهروا ويشار إليكم فصلُّوا في بيوتكم، واجعلوا صلاتكم معهم تطوُّعاً.

هذا ما أمكن الكتابة فيه حول التقية، ورأي الشيخ الأنصاري أستاذ العلماء، بل الجهابذة منهم.

